الفصل الأوَّل

كيف أثرت الإنترنت علي العلاقات الاجتماعيَّة الأسريَّة

✍ الأسـرة،أو «العائلـة» Family هـي الخليَّـة الأسـاس في المجتمع، وأهـم جماعاتـه الأوَّليَّة. والأسـرة تُعدّ الوحدة الاجتماعيَّة الأوَّلـي التـي ينشـأ فيهـا الفـرد ويتفاعَّـل مـع مكوناتها،ومـن ثـمَّ فهـي تؤثِّـر علـي النمـوّ الشـخصي في مراحلـه الأوَّلي،سـابقة بذلـك أيَّـة جماعـة أخـري توجـد في البيئـة المُحيطـة بالفـرد في كافـة مراحلـه العُمْرية.حيـث تُعتبـر المسـؤول الأوَّل عـن بنـاء الشـخصيَّة الاجتماعيَّـة والثقافيَّة،كمـا أن الأسـرة هـي النـواة الأوَّلـي لعمليـة « التنشـئة الاجتماعيَّـة » Socialization والتـي تتولـي تنشـئة أطفالهـا أو أفرادهـا في مراحلهـم العُمْريـة المختلفـة.

الأسرة..كيف تواجه طوفان الإنترنت ؟

الدكتور «جراي سـمول» Gray Small ،من «جامعة كاليفورنيا» University of California بـ «لـوس أنجلـوس»، Los Angeles يقـول في تصريـح لـه: «إنَّ التعـرُّض اليومـي للتكنولوجيـا الرَّقميـة مثـل: الهواتـف المحمولـة، والإنترنـت، قـد يغيـر مـن الطريقـة التـي تعمـل بهـا عقولُنـا «، وبـرَّر» د. سـمول » هـذا بأنَّنـا عندمـا نقضـي وقتـاً طويـلاً في التعامُّـل مـع الوسـائل التكنولوجيَّـة – وعلـى الجانـب الآخـر نقضـي وقتـاً أقـلّ في التعامُّـل مـع الأشـخاص الحقيقيـين – فإنَّـه يجعلنـا نَفْقـد تدريجيًّـا المهـارات الأسـاس في التعامُّـل الاجتماعـي مـع النَّـاس، كمـا نَفْقِـد القـدرة علـى قـراءة وفَهـم التعبيـرات علـى وجـوه النـاس، والتـي تظهـر أثنـاء المحادثـة معهـم.

ويضيف «د. سمول» في ذات السياق: «إنَّ الوصلات العصبيَّة في المخ - المسؤولة عن التعامُّل مع العلاقات التي تتمَّ وجهاً لوجه - تُصبح أضعف، ويؤدِّي هذا إلى أن يُصبح الشخص أقّل لباقةً في التعامُّلات الاجتماعيَّة، وأقلّ قدرة على التعامُّل مع النَّاس، ويؤدِّي هذا به إلى العزلة الاجتماعيَّة».

من هذا المنطلق،فإنَّ الأسرة ـ في زمن العولمة ومستجداتها التكنولوجيَّة الحديثة،وعلي رأسها شبكة الإنترنت ـ تواجه تحديات أخري،لعلّ أهمها تأثُّر عملية التنشئة الاجتماعيَّة بعوامل خارجية مُهدِّدة لمنظومة القيم المتوارثة، حيث أثَّرت التكنولوجيا بتقنياتها المُتعدَّدة، وخصوصاً في مجال الاتصال علي العلاقات الأُسرية التي شهدت تباعداً وتقلُّصاً في نوعيتها واستبدل أفراد الأُسرة بالتبادُّل اللَّفظي، والنقاش، والتفاعُّل المباشر، التعامُّل مع التقنيات، وبناء علاقات افتراضيَّة من خلال وسيط صامت هو «الإنترنت» الذي ساعد علي تسهيل العلاقات والتفاعُّلات بطرقٍ عديدةٍ ولكنَّها بعيدة أو متباعدة في المكان.

وبعد أن حدثت التطوُّرات الكبيرة في وسائل الاتصال وتقنياته ظهرت مصادر جديدة للمعارف فتأثَّرت أنماط العلاقات الأُسرية والاجتماعيَّة سلباً بهذه التطوُّرات، ففي الدول الغربيَّة انخفضت أهمية الأسرة مُقابل ارتفاع دور وتأثير

وسائل الإعلام فمثلاً في عام ١٩٦٠ كانت الأسرة هي المصدر الأساس في التأثير علي الأجيال الصَّغيرة،تليها المدرسة،ثُمَّ دائرة الأصدقاء، فدور العبادة، ولم يكن لوسائل الإعلام دور يُذكر في التأثير علي هؤلاء الصّغار،ولكن في عام ٢٠٠٤ احتلت وسائل الإعلام المرتبة الأولي،تليها جماعة الأصدقاء، وتراجعت الأسرة إلي المرتبة الثالثة، واحتلت المدرسة المرتبة الرابعة.

والسؤال الذي يطرح نفسه بشدّةٍ: كيف تؤثِّر التكنولوجيا الحديثة بما فيها الإنترنت علي التماسك الأُسري ؟

في البداية يجب أن نؤكِّد أنَّ مفهوم «التماسُّك» يحتل مكانة مركزية في الدراسات الاجتماعيَّة، ويحظي بأهميةٍ خاصَّة لدي كُلّ المُفكرين الاجتماعيين علي اختلاف مدارسهم ومذاهبهم الفكرية.

ويُقابل هذا المفهوم في دراسات الأسرة مفهوم مماثل في قيمته ودلالته هو«التماسُّك الأسري» Family cohesion الذي يعني: الرابطة العاطفيَّة القويَّة الذي تجمع أفراد الأسرة الواحدة، هذه الفكرة تدل علي التفاعُّل الوجداني الإيجابي الذي يُميِّز علاقة الآباء والأُمَّهات بأطفالهم،كما يتجلي «التماسُّك» في الأنشطة المشتركة، والسلوك والمفاهيم الداعمة للمحبَّة،بالإضافة إلي الآثار المفيدة لسلوك الأطفال وتنمية شخصياتهم وقدراتهم،إذ غالباً ما يكون الوالدان الجهات الرئيسة الفاعلة في بناء شبكة

العلاقـات الاجتماعيَّـة التـي يقيمهـا الأطفال.كمـا ترتبـط عمليـة النمـوّ الكميـة والنوعيـة لشـخصية الأطفـال ارتباطـاً وثيقـاً بطبيعـة وحجـم المـوارد التـي يوفرهـا لهـم الآبـاء

وقـد بيَّنـت الدراسـات الاجتماعيَّـة والنفسـيَّة أنَّ المراهقـين الذيـن تربطهـم علاقـة حميمـة بوالديهـم يحققـون مُعدلات عاليـة في المدرسـة، وتنخفـض لديهـم معـدلات التغيُّـب عـن المدرسـة.كما تكـون معـدلات التسـرُّب المدرسـي لديهـم ضعيفـة للغاية،فضـلاً عـن نـدرة حـالات التمـاس الرعايـة الطبيَّـة بسـبب مشـكلات عاطفيَّـة أو سـلوكية.

لقـد زاد الاهتمـام بـين الباحثـين في السـنوات الأخيـرة بموضـوع التأثيـرات الاجتماعيَّـة للتكنولوجيـا الحديثـة علـى الأسـرة والعلاقات الأُسـرية، وبخاصَّـة التقانـة أو التكنولوجيـا الرقميـة بأدواتهـا المُتعدِّدة والمختلفـة. وأبـرزت دراسـات عديـدة أنَّ هنـاك احتمـالات قويَّـة أن يؤثّـر دخـول الهاتـف الجـوَّال، والفضائيـات والحاسـوب،وبالذَّات علـى الإنترنـت علـى العلاقـات الأُسـرية عامَّة،وعلـى العلاقـة بـين الوالديـن والأطفـال والشـباب بصفـةٍ خاصَّةٍ.وبرغـم ذلـك الاتفـاق بـين المهتمين،فـإنَّ الآليـات الفعليـة التـي تُمـارس مـن خـلال التقانـة الحديثـة بتأثيراتهـا ليسـت معروفـة تمامـاً،ولا هـي محـل اتفـاق.

وهـذا مـا يفتـح البـاب واسـعاً أمـام تنافـس عـدة مقاربـات،أو بتعبيـر أدق عـدة فرضيـات لفهـم الطريقـة أو الطـرق التـي تؤثِّـر بواسـطتها التقانـة الحديثـة، وبالـذَّات الإنترنـت علـي العلاقـات الاجتماعيَّـة في الأسـرة، وتنافـس في ميـدان البحـث حـول هـذا الموضـوع ثـلاث مقاربـات أو فرضيـات:

- تتمثَّـل الفرضيـة الأوَّلـي فيمـا يُعـرف بـ «الحـدود الأُسـرية» Family boundaries التـي تقتـرح أنَّ إدخـال وسـائل التكنولوجيـا الحديثـة إلـي البيـت، مثـل: الحاسـوب والإنترنـت يُهدّد بإسـقاط الحـدود الفاصلـة بـين العـام والخـاص.إذ يمكـن أن تـؤدي تلـك التقانـة إلـي ظهـور توتُّـرات وصراعـات عديـدة بـين أفـراد الأسـرة، وبخاصَّـة بـين الآبـاء وأطفالهـم، وبالـذَّات المراهقـين منهـم.

وتتعـدَّد أسـباب تخـوف الآبـاء مـن الإنترنـت التـي يـرون فيهـا خطـراً كبيـراً بسـبب مـا تلتهمـه مـن وقـت الأطفـال وإبعادهـم عـن دراسـتهم،ناهيك عمَّـا تفتحـه أمامهـم مـن عوالـم غريبـة قـد تُهـدّد أخلاقهـم وسـلوكهم،ولكن أيضـاً لأنَّهـا تُهـدّد خصوصيـة الأسـرة،لأنَّ الدخـول في مواقـع الشـبكة و«غـرف الدردشـة» chat rooms غالبـاً مـا يسـتدعي تقـديم معلومـات خاصَّـة عـن الشـخص ومُحيطـه العائلـي لأفـرادٍ غربـاء،أو لـوكالاتٍ تجاريـةٍ، ومـن ثـمَّ يضـع الطفـل أو

المراهق تلك المعلومات في متناول مُستعملي الإنترنت من الغرباء. بل لقد ثبت فعلاً أنَّ الشركات التي تمتلك المواقع أو تديرها لا تكتفي باستعمال تلك المعلومات فيما يعود عليها هي ذاتها بالفائدة،بل تقوم أيضاً بالتنازل عن تلك المعلومات الخاصَّة لمنتسبيها، أو تبيعها لأطراف أخري لأغراض تجارية ودعائية وربما لغير ذلك أيضاً.وهذا ما يؤدي إلي توتُّر العلاقات بين الآباء والأبناء بشكلٍ مستمر،لأنَّ الآباء يرون في ذلك مصدراً رئيساً لمخاطر كثيرة قد تتعرَّض لها الأسرة وتُهدّد مصالحها المادية والمعنوية.

- وتري الفرضية الثانية المُسماة «إعادة توزيع الوقت» Redistribute time احتمالات كبيرة لحدوث تغييرات في تماسُّك الأسرة بسبب أنَّ استخدام الإنترنت إنما هو نشاطاً يستهلك وقت الأفراد،ومن ثمَّ فهو يُقلّص من مقدار الوقت المُخصَّص للأسرة.بعبارةٍ أخري،يري أنصار هذه الفرضية أنَّ الوقت الذي يقضيه الأفراد علي الإنترنت سيكون علي حساب الوقت الذي يقضونه مع أفراد الأسرة الآخرين،خاصَّة الزوجين فيما بينهما،أو الوالدين مع أطفالهما.وهو ما يؤدي إلي ضعف التماسُّك الأُسري سواء تعلَّق الأمر بالعلاقة بين الزوجين،أم تعلَّق بالعلاقة بين

الآباء والأطفال،خاصَّة المراهقين،الذين يكونون بحاجةٍ كبيرةٍ للدعم المعنوي والأخلاقي من الوالدين في مرحلةٍ حاسمةٍ من نموِّ شخصياتهم.

- أمَّا الفرضية الثالثة التي تقوم علي فرضية« تركيبة الشخصيَّة Personal combination فإنَّها تعتقد أنَّ التكنولوجيا الحديثة وبالذَّات الإنترنت لا تؤثّر علي العلاقات الأُسرية.إذ إنَّ كُلَّ التغيُّرات التي تحدث في العلاقات الأُسرية،وكذا الصراعات والتوتُّرات التي تصيبها،وضعف التماسُّك الذي يُميِّزها ليس بالضرورة ناتجاً عن استعمال هذه التكنولوجيا،بل عن استعدادات قبلية متأصلة في شخصية الأفراد المُستخدمين لها، فالأفراد الذين يستخدمون الإنترنت بكثرةٍ،خاصَّة المراهقين، يتميزون بضعف المفهوم الايجابي للذَّات لديهم، وهذه السمة هي التي تؤثِّر سلباً علي العلاقات بين أفراد الأسرة، وبالذَّات بين الوالدين والمراهقين.

أمَّا بخصوص دور التكنولوجيا الحديثة والإنترنت تحديداً في بناء وصياغة اتجاهات الأفراد والعلاقات الاجتماعيَّة فقد أبرزت دراسة مهمة حول هذا الموضوع أُجريت في الولايات المتحدة الأمريكيَّة في منتصف التسعينيات من القرن العشرين أنَّ هناك نزعة قويَّة لتراجع الالتزام المدني والمشاركة الاجتماعيَّة

مـن قِبـل المواطنـين خـلال السـنوات الـ ٣٥الماضية.حيـث لوحـظ تراجـع في إقبـال المواطنـين علـي الانتخابات،كمـا ضعـف إقبالهـم علـي الكنائس،وقـلّ الاهتمـام بالشـأن العـام ومناقشـته مـع الآخريـن، وتراجعـت عضويتهـم في التنظيمـات التطوعية،كمـا صـار النـاس يلتقـون بدرجـةٍ أقـلّ في المناسـبات الاجتماعيَّـة

وبيَّنـت الدراسـة أنَّ هـذا التراجـع في الالتـزام الاجتماعـي أدي إلـي عواقـب سـلبيَّة علـي الجسـم الاجتماعي والعلاقـات الاجتماعيَّة وعلـي الأفـراد أيضـاً، فعلـي المسـتوي الاجتماعـي صاحـب تراجـع الالتـزام الاجتماعـي ارتفـاع في الفسـاد، ونقـص في فاعليـة الحكـم وارتفـاع في مُعـدلات الجريمـة. وقـد ثبـت بالممارسـة أنَّ المواطنـين الذيـن يشـاركون في الحيـاة المدنيـة والعامَّـة يحققـون منافـع كثيـرة، فالمـدارس التـي يتعلَّـم فيهـا أبناؤهـم تسـير بشـكلٍ أفضـل، وتصبـح شـوارعهم آمنـة .أمَّـا علـي المسـتوي الفـردي فـإنَّ الانسـحاب مـن الالتزامـات الاجتماعيَّـة فهـو يـؤدي إلـي العزلـة والانطوائيـة، ومـن ثـمَّ إفقـار نوعيـة الحياة،فضـلاً عـن تراجـع خطيـر في مسـتوي الصحَّـة النفسـيَّة والفيزيقيـة. ولقـد ثبـت أيضـاً بمـا لا يـدع مجـالاً للشـكّ، أنَّ النَّـاس الذيـن لديهـم شـبكة علاقـات اجتماعيَّـة واسـعة يتمتعـون بصحَّـة نفسـيَّة وفيزيقيـة أفضـل، ويشـعرون بسـَّعادةٍ أكبـر في حياتهـم.

هل من ضرورة حقيقية لتواجد الإنترنت داخل البيت ؟

لا يمكن إنكار أنَّ الاتصال علي شبكة الإنترنت الآن من العناصر المهمة في حياة معظم النَّاس في المجتمعات المعاصرة، حيث انتشرت استخدامات الاتصال بشبكة الإنترنت في أماكن العمل والمدارس والمكتبات والمنازل، وأصبح الجميع ومن بينهم الأطفال والشباب من المُستخدمين الدائمين لهذه الشبكة. وتُشير الإحصائيات إلي أنَّ ٦٠٪ من المنازل في الدول المتقدمة تمتلك علي الأقلّ جهاز كمبيوتر، فهل الأمر يختلف في الدول النامية ومن بينها الدول العربيَّة ؟

في الحقيقة ورغم أنَّها أقلّ من حيث الاستخدام، إلاَّ أنَّ هناك نموّاً سريعاً في هذا المجال حتى أنَّ مؤشرات استخدام تقنيات الاتصال الحديثة في الدول العربيَّة الخليجيَّة تُضاهي الدول المتقدمة، بل تفوق العديد منها.

وقد توصلت نتائج بعض الدراسات إلى موافقة أغلبية الأُمَّهات عينة الدراسة على ضرورة وجود الإنترنت في المنزل، وأنَّه أصبح من الضروريات بنسبة قدرها٦٩, ٩٪ .كما يرون أنَّ للإنترنت إيجابيات، وأنَّ ايجابياته أكثر من سلبياته،كما يرون أنَّ الإناث والمراهقين هم أكثر استخدماً للانترنت، ممَّا يدل على أهمية الإنترنت في الوقت الحالي، حيث أنَّه يمثل المصدر الرئيس للمعارف والمعلومات.

وجاء استطلاعٌ أُجْري من قِبَل مؤسَّسة «بيو إنترنت» Pew Internet في عرض آراءِ نحوِ ٢٢٥٢ أسرة، وخَلصت إلى أنَّ الأسر التقليدية تواجه ضغوط الحياة العصرية المتزايدة، باستخدام الهواتف المحمولة، والبريد الإلكتروني، والرسائل النصية للبقاء على اتصال. وقال ٥٣٪ ممَّن شمِلتهم الدراسة: إنَّ التقنيات الحديثة ساعدتْهم على البقاء على اتصال مع أقاربهم، الذين تفصلهم عنهم مسافات بعيدة. وذكر ٤٧٪ من الأسر: أنَّها حسَّنت من تفاعُلاتهم مع مَنْ يعيشون معهم. وأفاد ٤٧٪ آخرون: بأنَّ التكنولوجيا الحديثة ليس لها أي أثر. وذكر ٢٪ : أنَّها أدَّت إلى انخفاض جودة التفاعُل بين أفراد الأسرة.

وبالرغم من كُلّ الجدل والحوار الدائر اليوم حول تداعيات استخدام الإنترنت علي الأسرة والمجتمع، فإنَّ مُستخدمي الإنترنت من العرب لم يتجاوز ٢٪ من مُستخدمي الشبكة في العالم،رغم أنَّهم يشكلون أكثر من ٥٪ من سكان العالم، هذا وما زال المحتوي العربي علي الشبكة ضئيلاً، ولا يمثل سوي١٪ من المحتوي العالمي كُلَّه.

الإنترنت ..والعلاقات الاجتماعيّة الأسريّة:

بالطبع لم يُخلق الإنسان وحيدًا قط، لذا كان يجب عليه الاندماج مع غيره في المجتمع، وتكوين صداقات ومعارف تُعينه على التعايش في هذه الحياة، فانعزال الإنسان وحيداً بعيداً عن النَّاس ليس بالأمر السَّهل كما نتصوَّر، فعلى الرغم من أنَّ هناك الكثير من الحمقى والأغبياء الذين يعتقدون أنَّ الحياة ستبدو أسهل إنْ ابتعدوا عن كافة أنواع التواصل مع غيرهم، ولكن لا يوجد أصعب من أن يمضي الإنسان وقته وحيداً لا يجد من يُحدثه أو يشاركه أفراحه أو أحزانه بشكلٍ عام.. لذا فإنَّ التواصل المستمر مع النَّاس يجعل من السهل عليه أن يتعامَّل مع كافة المواقف في حياته، والاستفادة من تجارب الآخرين، كما أنَّه سيجد معيناً له يوم أن يحتاج إلى ذلك، فالعلاقات الاجتماعيَّة مهمة جدًّا وضرورية للغاية.

وقد تَوَصَّل فريقٌ بحثي أمريكي من جامعة «يونغ بريغهام» Young Brigham إلى أنَّ قضاء وقتٍ سعيدٍ مع الأهل والأصدقاء، يُقلّل من خطر الموت المبكر بنسبة ٥٠٪، وصرَّح أعضاء الفريق بأنَّ العلاقات الاجتماعيَّة القويَّة مفيدة للصحَّة؛ مثل: التوقف عن التدخين؛ حيث إن ضعف العَلاقات الاجتماعيَّة يُوازي تدخين ١٥ سيجارة في اليوم، وإن تراجع الحياة الاجتماعيَّة

يُعادل مُعاناة إدمان الخمر، وتأتي أهميةُ العلاقات الاجتماعيَّة في أنَّها تزيد في صحَّة الإنسان أفضل من اللقاحات التي تمنع الإصابة بالمرض؛ ذلك أنَّ الإنسان خُلِق كي يعيش مع غيره، وأن عزلته عن النَّاس تُسبِّب له أمراضاً نفسيَّةً وصحيَّةً. إنَّ وجود العلاقات الاجتماعيَّة بين أفراد الأسرة يعني وجود المحبَّة، والعاطفة، والمودَّة، وغيرها من الصفات الحميدة، التي تجعل الأسرة متماسكة ومترابطة.

وكان للإنترنت تأثيراً ملحوظاً علي مثل هذه العلاقات الاجتماعيَّة، فقد ساعد الإنترنت على توطيد الكثير من العلاقات الاجتماعيَّة من خلال وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، ولكن بطريقةٍ أكثر بروداً عن ذي قبل، فعلى الرغم من أن الإنترنت استطاع تقريب المسافات، واختصار الوقت والجهد والمال، إلاَّ أنَّ الكثير من العلاقات الاجتماعيَّة أصبحت شبه راكدة، مملة، فقد استبدلت الزيارات،والتجمُّعات في المناسبات والأعياد برسالةٍ صغيرةٍ يرسلها الشخص إلى مَنْ يُريد عوضاً عن زيارته، أو الحديث إليه وجهاً لوجه، فكانت تلك الرسائل أشبه بتسجيل الحضور فقط في حياة البعض، هذا الحضور الأسمى فقط وليس الفعلي.. فاختفى الهدف الأصلي من التواصل، وأصبح كُلّ شيٍ بارداً، كما أنَّ التجمُّعات العائلية

وتجمُّعات الأصدقاء نفسها لا يخلو منها هذا المشهد الذي ترى فيه كُلّ فردٍ ممسكٍ هاتفه المحمول متصفحٍ للإنترنت لا يحفل بالاجتماع مع أصدقائه وعائلته، فأصبحت العلاقات الاجتماعيَّة مفككة ومتباعدة بشكلٍ كبير، واختفت مظاهر المشاركة الفعلية التي تكون في الحزن والفرح وغيرها إلاَّ في حدودٍ ضيقةٍ جدًّا، وغالبًا ما تكون قاصرة على رسالة على الإنترنت.